دورمحمد بن عبد الكريم المغيلي في مقاومة يهود توات

أ.عبد القادر الميلق، جامعة غرداية

تميز تاريخ الجزائر على مر التاريخ بوجود أعلام ورجال،أثروا الدنيا بعطائهم،وصنعوا تواريخ أمم لم تكن معروفة ،وكشفوا اللماط عن حقائق كانت آنذاك ممزوجة بأساطير ،قننت بقانون التسامح الديني في رحاب الحضارة الإسلامية،إلى أن قيض الله لهذه الأساطير الإضمحلال وفق سنن إلهية ،أقصد هنا طائفة اليهود التي إستوطنت في الجنوب الجزائري،وتنفدت في شؤون البلاد والعباد،وحاكت الدسائس والمؤمرات ضدا الإسلام والمسلمين،فقيض الله لطائفة اليهودالمغيلي ،الذي قاومهم وبين خطورتهم ،فكانت مقاومته بالقلم والبيان ،إلى السيف والهجران،فصدق من قال وما الرجال إلا رجالات ثلاثة،رجل وهب نفسه لغيره،ورجل وهب نصفه لغيره ،ورجل وهب كله لنفسه.

وما المغيلي إلارجل وهب نفسه لخدمة قضايا أمته ونصرة دينه،طبعا هذه هي شيم أبناء الجزائر ،فالوقائع صدقت ماذهب إليه المغيلي ،فهذا المؤرخ صالح فركوس يقول: لو تصفحنا تاريخنا قديمه وحاضره لوجدنا أن أزمتنا ومشاكلنا وأخطرها على الإطلاق الإحتلال، إنما كان بسبب اليهود [1].

لمعالجة هذا الموضوع ،قسمنا مداخلتنا هذه ،إلى محاور:تناولنا في المحور الأول مولده ونشأته،وأما المحور الثاني تناولنا فيه جهود المغيلي الإصلاحية،ليكون المحور الثالث نماذج من كتاباته الدينية،وأما المحور الرابع كان للحديث عن مقاومته ليهود توات وموقف أهلها منها.

1-مولده ونشأته:

الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي هو احد علماء القرن الخامس عشر ميلادي المرموقين ، والمغيلي نسبة إلى قبيلة مغيلة التي تقطن في نواحي مدينة تلمسان بالجزائر [2]،ولد بتلمسان سنة 1427م على الأرجح وقيل سنة 1438م [3]اشتهر بعلمه الواسع ومواقفه السياسية الصارمة ،ونشاطه الإصلاحي المجدد ، اضطر في عام 1452 لترك

تلمسان واللجوء الى توات[4] ، وذلك هروبا من مفاسدها ورغبة منه في نشر العلم والدعوة في سبيل الله [5] أخذ العلم عن عبد الله يحي بن يدير وعبد الرحمان الثعاليبي، ولما كان في تلمسان حصل بينه وبين ملوك بني زيان خلاف فارتحل إلى مدينة تمنطيط جنوب الجزائر (توات) ،فنزل أولا بقرية الأولاد سعيد بتمنطيط في حدود سنة 1452 م[6].

وهناك جلس للتدريس وبنى زاويته القادرية ،وذاع صيته في كامل الصحراء وبلاد السودان ،حيث قضى وقتا طويلا هناك في الدعوة والإصلاح ،حيث خلف هناك تلامذة وأتباعا اقتفوا منهجه واقتبلوا فكره ، وهكذا أصبح له حضور قوي في أقطار السودان الغربي يدل على المكانة التي حازها علماء توات والجزائر في تلك البقاع [7]، ترك عدد كبيرا من الطلبة والمثقفين منهم محمد بن عبد الجبار الفيقيقي [8].

وقد نعته ابن مريم في كتاب البستان بأنه (خاتمة المحققين ،الإمام العلامة المحقق الفهامة القدوة الصالح السني الحر ، أحد أذكياء العالم و (أحد) أفراد العلماء اللذين أوتوا بسطة في العلم والتقدم والنسبة في الدين ، المشهور بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبغض أعدائه جرى بينه جماعة مشاحنة وأمور ...) [9] .فما هي ياترى جهوده العلمية؟

2-جهود الشيخ المغيلي الإصلاحية:

قضى الشيخ المغيلي أزيد من عشرين سنة في الدعوة إلى الإسلام ونشر أحكامه وأفكاره بين شعوب السودان الغربي، ولاشك أن مساهمنه كانت كبيرة في نشر تعاليم الإسلام،والأخذ بيد الحكام، وإدخال شعوب وقبائل عديدة في الإ سلام، ويعترف رواد الإصلاح الأفارقة في العصر الحديث بمرجعية المغيلي في مختلف أحكامهم الدينية والسياسية، مما يؤكد على الدور الهام للشيخ المغيلي.

يعد الشيخ المغيلي مصلحا دينيا وسياسيا واجتماعيا، ساهم في نشر أفكاره الإجتهادية في مرحلة حاسمة من انتشار الإسلام في السودان الغربي وقد أهلته شخصيته بأبعادها المختلفة للقيام بهذا الدور الريادي، فهو كان مدرسا وإماما ومفتيا وقاضيا .

وللمغيلي عديد الكتب والرسائل، مشهور منها مايلي [10]:

1- البدر المنير في علوم التفسير،
2- تفسير الفاتحة،
3- مصباح الأرواح في أصول الفلاح،
4- شرح مختصر خليل،

5- إكليل معنى النبيل (وهو حاشية على مختصر خليل أيضا)،
6- رسالة في البيوع شملها(مفتاح الكنوز)،
7- إيضاح السبيل في بيوع آجال خليل،
8- شرح بيوع الآجال (كتفسير على كتب ابن الحاجب في هذا الموضوع)،
9- رسالة في المنهيات،
10- مفتاح النظر في علم الحديث،
11- شرح جمل الخرنجي في المنطق،
12- رسالتان في المنطق،
13- منهج الوهاب (وبه منظومة في المنطق)
14- مقدمة في العربية،
قصيدة ميمية في مدح الرسول(ص)،
15- مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين،
16- كتاب الفتح المبين،
17- رسالة إلى أمراء كانو،
18- أجوبة على أسئلة الأسقيا محمد، صاحب الصنغاي.
19- رسالة في الرد على المعتزلة [11]

ارتحل المغيلي إلى غرب إفريقيا ونشر الإسلام وكان ينتمي إلى الطريقة القادرية،فزار التكرور وكانو وإجتمع بسلطانها ،وألف له رسالة ومكث بمدينة تومبكتو وإلتقى بالسلطان محمد أسقيا وأجابه عن أسئلته في رسالة ،وسمها ب أسئلة الأسقيا محمد وأجوبة المغيلي . ولمعرفة موسوعية المغيلي ،إرتأيت عرض بعض النماذج منها.

3-نماذج من أجوبة المغيلي الدينية:

في كل من رسالة المغيلي إلى أمراء (كانو) والأجوبة السبعة التي وافى بها أمير الصنغاي الأسقيا محمد الكبير، ظهر المغيلي كعالم فقيه يرى أنه على الحاكم أن يكون في خدمة رعيته إلى أقصى الحدود، ذلك لأنه خادمهم ومسؤول عن مصيرهم، ومتى توفرت فيه هذه الشروط، فإن عليه أن يتخذ جميع الطرق في النهي والردع، ليرد الباغي وينصر المظلوم، وذلك هو منطق الإسلام الصحيح، كما أظهر في مكاتباته هذه أنه كان مطلعا إلى حد كبير على سلوك الناس في بلاد السوادين وعارفا بمدى معرفتهم بالإسلام [12].

جاء مثلا في الإجابة رقم(1) على الأسئلة التي طلب منه أمير الصنغاي موافاته بالإجابة عنها مايلي :.....(... إنما أنت مملوك لاتملك شيئا، وقد رفعك مولاك على كثير من عباده لتصلح لهم دينهم ودنياهم ، لالتكون سيدهم ومولاهم، وأنت في جميع مملكتك راع لا مالك...) [13].

وجاء في الإجابة على المساءلة رقم 4 وقوله:

(.. وليس من المنكر قتل الظلمة والمفسدين وأعوانهم، ولو كانوا يصلون ويصومون ويزكون ويحجون)[14]

وجاء في الإجابة على المساءلة رقم 7 والخاصة بالسحرة والمطففين في المكاييل والموازين، مايلي:

(إن كل ما ذكرتموه عن بعض أهل البلاد ضلال عظيم، فواجب على المسلمين، وكل من له قدرة من المؤمنين أن يغير تلك المناكركلها،أما من يزعم أنه يعلم علم الغيب بشئ من تلك الأمور أو غيرها، فإنه كاذب ومن صدقة كفر، فواجب أن يقفوا للتوبة تحت السيف، فمن تاب ترك، ومن أبي قتل بالسيف كفرا ... قال صلى الله عليه وسلم : من صدق كاهنا فقد كفر بما أنزل الله على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك يوقف بالسيف كل ساحر وساحرة، وكل من يزعم أن عنده من الطلاسم والعزائم ونحوها مايجلب الرزق أو يهزم العدو أو نحو ذلك، فمن تاب منهم ترك، ومن أبي قتل ... وأما التطفيف فهو حرام بالكتاب والسنة وإجماع علماء، الأمة وواجب على أمير المؤمنين أن يجعل أمير على الأسواق وحفظ الأرزاق، فيصلح موازين كل بلد على نسبة واحدة بتقويم الميزان والوزن وتسوية الصنوج ... وكذلك إصلاح المكائل كبارها وصغارها حتى تكون كلها على نسبة واحدة ، ولابد من عرض الموازين والمكاييل على التغيير في كل حين، فمن ظهرت عليه الخيانة في شيئ من الوزن أو الكيل، فعاقبوه وأخرجوه من أسواق المسلمين ...)[15].

من خلال مامر معنا نستنتج أن المغيلي كان ضليعا في مختلف العلوم الشرعية جعلت منه يتقلد عدة مناصب ،هده المناصب تنم على أن الرجل كان فريد زمانه ،لاسيما إدا عرفنا أن عصره كان بمثابة الفترة الإنتقالية إجتماعيا في داخل البلدان المغاربية عموما، وهذه المناصب نوجزها فيما يلي :[16].

- إشتغاله بالتدريس والإمامة.
- مزاولته الإفتاء.
- توليه منصب قاضي الجماعة التواتية.

- إشتغاله بالسياسة.
- قيامه بالدعوة والإرشاد.

ولكن شمولية الفكر الإصلاحي للمغيلي ،تركت بلا شك أثارا على بلادإفريقيا الغربية،ففيما تمثلت هده الآثار؟

لقد ساهم المغيلي في نشر المدهب المالكي في السودان الغربي ومده إلى ا لمناطق التي افتتحها بدعوته لأول مرة ،ومنها بلاد الكمبي وغانة ،وأحكامه الفقهية والسياسية الداعية للجهاد عرفت إنتشارا واسعا ،وتبناها فيما بعد زعماء الإصلاح في السودان الغربي الحديث [17]،أمثال عثمان بن فودي [18].

4 – مقاومة المغيلي ليهود توات وموقف أهلها منه:

أ – مقاومة المغيلي ليهود توات:

أسبابها :

لقد أثار اليهود بمدينة تمنطيط وقصور توات مفاسد ومنكرات عاينها المغيلي عندما نزل بالمنطقة،وذلك نظرا إلى أن اليهود كانوا بارعين في التجارة فقد أصبحت أكثريتهم غنية، مما جعلهم يتنفذون لدى أصحاب السلطة سواء في الشمال أو الجنوب، وهذا ماجعل المغيلي ينكر على أولي الأمر من المسلمين خنوعهم لأغنياء اليهود، كما أنكر على اليهود عدم احترامهم لقاعدة أهل الذمة في بلاد الإسلام [19].

بالإضافة إلى تجاوز اليهود للحدود الشرعية والإستعلاء على المسلمين، وتأثيرهم على سكان المنطقة، جراء ذلك جهر المغيلي بدعوته إلى إصلاح الوضع، وأعلن معادته لليهود [20].

مراحلها:

أولا: مراسلة العلماء لاستنهاض همهم، وممن راسلهم الإمام التنسي والشيخ السنوسي..الخ[21].

ثانيا: التنقل داخل توات وخارجها لشرح قضيته وكسب التأييد لها، وقد ارتحل إلى فاس بعد سنة 1486 لمحاورة ومناظرة علمائها بعد أن أرسل لهم رسالته المشهورة (مصباح الأرواح في أصول الفلاح) ، وعقدت المناظرة بحضرة السلطان ابن أبي زكريا الوطاس المريني الذي استقبله استقبالا حافلا، ولكن أغلب الفقهاء عارضوا موقفه من يهود توات، واتهموه بالسعي وراء الظهور والملك لا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما بخصوص رسالته التي عرضها على العلماء شارحا فيها قضية يهود توات فقد اعرض عنها البعض وأنصفها البعض الآخر، وممن أطرى عليها شيخ الجماعة أبو عبدالله ابن

غازي الذي كتب على ظهر الكتاب هذا كتاب جليل صدر عن نص غليل وعلم بالصواب كفيل وصاحبه غريب في هذا الجيل[22].

وتؤكد بعض الروايات التاريخية حدوث مجابهات بين أنصار المغيلي وبين عصبة اليهود في بعض الأحيان[23].وفي هذه الأثناء راسله كل من الإمام الحافظ محمد بن عبد اللّه التنسي معضدة برسالة الإمام السنوسي تثني على موقفه ،وومما جاء في رسالة السنوسي : لقد وفق لإجابة المقصد وبذل وسعه في تحقيق الحق وشفى غليل اهل الإيمان في المسألة، أما رسالة الإمام محمد بن يوسف السنوسي فقد امتدح فيها موقف المغيلي وأثنى على جواب التنسي واعتمده في تحقيق المسالة [24]، ومما قاله عن الإمام المغيلي أنه القائم بما أندرس في فاسد الزمان من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي قام بها لاسيما في هذا الوقت علم على الإتسام بالذكورة العلمية، والغيرة الإ سلامية، وعمارة القلب بالإيمان[25].

3- هدم كنائس اليهود:

لما وصلت إجابة الشيخ السنوسي إلى توات ومعها رسالة السنوسي انتصر المغيلي بفتواهما ، وبهذا أمر تلاميذه وأنصاره فخربوا كنيستهم التي كانت كبيرة جدا مرتئيا أن كنائسهم في بلاد المسلمين يجب أن تكون أقل حجما، ودخل معهم في صراع مرير[26]، إذ أمر جماعته وأنصاره في هذه المرة بقتال اليهود، ولما عاين المغيلي الوضع وشعر بهروب اليهود إلى القصور المجاورة خاطب السكان بالقول: من يقتل يهوديا فله سبعة مثاقيل من مالي الخاص[27].

وفعلا تم له النصر وتشريد اليهود وإخراجهم من تمنطيط، حيث هاجر بعضهم المنطقة إلى تلمسان وفاس، وأتم المغيلي عمله بتنظيم شؤون البلاد، وإصلاح ماأفسده اليهود، وبهذا حضي هو وابنه عبد الجبار، باحترام وتقدير السكان[28].

لم يكتفي المغيلي بمهمة الجهاد في توات بل إضطلع بمهمة نشر الإسلام ونقل أفكاره الإصلاحية في بلاد السودان الغربي، متنقلا من كانوا التي إستقبله أميرها المسمى رنفا وفي هذا يقول الألوري:وفي عهد سلطان كانوا المسمى (رنفا) حضر الشيخ محمد المغيلي إلى كانوا ومكث بها مدة تولى فيها القضاء والإقامة وتزوج بها وخلف ثلاثة أولاد : أحمد وعيسى والسيد الأبيض) [29].

وعن تنقلاته في السودان الغربي وما جرى له كتب ابن مريم: ثم ارتحل إلى بلاد أصير ودخل بلدة نكدة واجتمع بسلطانها وقرأ عليه أهلها وانتفعوا به، ثم دخل بلاد وكشن من بلاد السودان، واجتمع بسلطان كنو وكتب له رسالة في أمور السلطنة...

وعلمهم أحكام الشرع وقواعده، ثم ارتحل إلى بلاد التكرور، فوصل إلى بلاد (كاغو) واجتمع بسلطانها أسقيا الحاج محمد، وجرى على طريقته من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألف له تأليفا أجابه فيه عن مسائله)[30].

وفي هذه الأثناء بلغه مقتل ولده عبدالجبار الذي تركه في توات،وهذا ماأكده ابن مريم: وبلغه هناك قتل ولده بتوات فانزعج لذلك وطلب من سلطانها قبض التواتيين اللذين في كاغو، فحينئذ قبض عليهم[31].

فما هو موقف الأهالي من الحركة الجهادية المغيلية ؟

إنقسم الناس في ايام المغيلي بين مناصر ومخالف لأعماله وأفكاره[32] ، ومن أبرز من أنكروا عليه عمله في تمنطيط بالذات قاضيها أبوعبدالله العصنوني، وشيخ الجماعة عمر بن عبدالرحمان الذي لم يكتفي بإنكاره بل قام بإرجاء يهود توات إلى أماكنهم، الأمر الذي جعل الشيخ المغيلي يعلن الحرب من جديد على اليهود، ولكن في هذه المرة تطورت المجابهة إلى إحتدام الصراع بينه وبين الشيخ عمر بن عبدالرحمان، فترتب عن هذا الصراع موت الكثير من كلا الجيشين[33] ، ولكن يمكننا هنا أن نستفسر عن حمل عمر بن عبدالرحمان لمقاتلة المغيلي !

حدث في هذه المرحلة بالذات أمر غريب ؛إذ اقدم الشيخ الهلالي والقاضي العصنوني إلى إستصدار فتوى تعزز موقف عمر بن عبدالرحمان، إضافة إلى الوضع الذي آلت إليه منطقة توات، ولاسيما تذمر أهلها من الركود الإقتصادي والتجاري اللذان كان عمودهما الفقري اليهود[34]. وهذا ما أقره المغيلي: وأنكر عليه سيدنا ابو المحاسن محمود بن عمر إذ لاذنب له في ذلك فرجع عن ذلك وأمر بإطلاقهم[35]

ومن بين مناصريه الإمام السنوسي والتنسي بالإضافة إلى علماء فاس وتونس[36].

بعد هذه الأحداث الجسام لجأ المغيلي إلى قبيلة البرامكة، التي توفي بها في غرة رمضان من سنة 909هـ / 1505م [37]، ولكن في هذه المعركة يبدو أن اليهود حققوا إنتصار الرأي العام حول إستقرارهم بالمنطقة بعد أن كسبوا الحكام إليهم وذلك عن طريق حيلهم ودسائسهم [38].

خاتمة: مما سبق معنا نستنتج:

- يظهر لنا جليا موقف المغيلي الموسوم بالعداء المستمر إلى أن وافته المنية.
- إن موقف المغيلي كان نابعا من نصوص شرعية، واجتهادات شخصية ،ورسائل تشاورية، في إطار دراسة مستفيضة لأوضاع اليهود في المنطقة.

- كان منهج المغيلي يتسم أحيانا بالنظري(المناظرة والحوار)، وأحيانا أخرى بالتطبيق (هذا بعد الصبر على المكاره، شرع في الجهاد لإستئصال الفساد).

- تعدد مقاومة المغيلي الثقافية والدينية والسياسية والإجتماعية والإقتصادية داخل المجتمع التواتي.

- يمكننا أن نستشف الوضع السياسي في توات وعموم المغرب الأوسط،الذي كان مهلهلا ومتشرذما ومنقسما على نفسه.

وأخيرا يبدو لي أن المغيلي شخصية لم تستوفي حقها من الدراسة والتحليل، وعليه أدعوا من خلال هذه السطور إلى إدراج الفكر السياسي المغيلي في منظومتنا التربوية ، وترسيخها في أذهان الناشئة.

الهوامش:

(1) صالح فركوس: **المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفنيقيين إلى خروج الفرنسيين (814 ق.م-1962)**، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة 2003، ص 136.

(2)عبدالقادر زبادية : **دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2010، ص 130.

(3)عبدالله مقلاتي ورموم محفوظ: **دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام والثقافة العربية بإفريقيا الغربية**، الطبعة الأولى، الشروق، الجزائر 2009، ص 72.

(4)إقليم توات يقع في جنوب غرب الصحراء الجزائرية التي هي جزء من الصحراء الكبرى، يشتمل على 53 واحة وهي تغطي حوالي 2000 ميل مربع من الأرض، ويقع الإقليم بين خطي طول 4 غربا إلى 1 شرقا، وبين دائرتي عرض 26 و30 شمالا، أنظر فرج محمود فرج : **إقليم توات خلال القرنين 18و19**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1977، ص ص 1- 2.

(5)عبدالله مقلاتي : المرجع السابق، ص 69.

(6)نفسه، ص 73.

(7)نفسه، ص 69.

(8)أبو عمران الشيخ: المغيلي 909هـ - 1503م، في معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر 1995،ص 505

(9)إبن مريم المديوني : **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، الجزائر 1986، ص 253.

(10)عبدالقادر زبادية : المرجع السابق، ص ص 132 – 133.

(11)كانت عبارة عن مخطوط في البداية إلى أن حققها عمار طالبي ونشرها في مجلة القبس بأدرار العدد 20.

(12)عبدالقادر زبادية: المرجع السابق، ص 133.

(13)عبدالقادر زبادية:**الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا جنوب الصحراء دراسات ونصوص** ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر 1989،ص ص160- 169.

(14)عبدالقادر زبادية:المرجع السابق،ص ص170- 175.

(15)نفسه ،ص ص186- 191.

(16)عبدالله مقلاتي: المرجع السابق، ص ص 98- 101.

(17)نفسه، ص 107.

(18)عثمان بن فودي: ولد في السودان سنة 1745، تتلمذ على يد الشيخ جبريل المالكي المذهب في مدينة غدامس، أعلن الجهاد ضد الزنوج الوثنيين في السودان الغربي سنة 1804، يعتبر عثمان بن فودي من المصلحين المسلمين في إفريقيا السوداء، كان له دور كبير في نشر الإسلام في المنطقة، توفي سنة 1817، أنظر حول هذه الشخصية: عبدالقادر زبادية، المرجع السابق، ص ص 78- 82، عمار هلال:**الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء**، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر 1984، ص ص 29- 30.

(19) عبدالله مقلاتي: المرجع السابق، ص 79.

(20)نفسه، ص 90.

(21) نفسه، ص 87.

(22)نفسه، ص 88.

(23)نفسه، ص 92.

(24)نفسه، ص 89.

(25)نفسه، ص 89.

(26)عبدالقادر زبادية: **دراسة عن إفريقيا**،المرجع السابق،ص 131.

(27)نفسه،ص 131، عبدالله مقلاتي : المرجع السابق، ص 90.

(28)نفسه، ص 90.

(29)عبدالله الألوري:**موجز تاريخ نيجيريا**، بيروت 1965، ص 82.

(30)ابن مريم المديوني: المصدر السابق، ص 254.

(31)نفسه ، ص 255.

(32)عبدالقادر زبادية : **دراسة عن إفريقيا**، المرجع السابق، ص 131.

(33)عبدالله مقلاتي: المرجع السابق، ص 92.

(34) نفسه، ص 92.

(35) ابن مريم المديوني: المصدر السابق، ص 255.

(36)عبدالقادر زبادية : **دراسة عن إفريقيا** ،المرجع السابق، ص 131.

(37)عبدالله مقلاتي: المرجع السابق، ص 93.

(38)المهدي البوعبدلي : **أضواء على تاريخ مدينة تمنطيط ودور المغيلي بها في قضية يهود توات**، في مجلة الثقافة، مجلة ثقافية تصدرها وزارة الثقافة والإعلام، الجزائر 1986، العدد 94، ص 90.